أهل الشام

ريبورتاج

أطاحت موجة الحرائق التي شهدتها سوريا منتصف الشهر الحالي، بمساحات خضراء واسعة، في أرياف حمص وطرطوس واللاذقيّة. يروي بعض أبناء «وادي النضارة» ذكريات ذلك اليوم المشؤوم، فيما تنادت جهات أهليّة عدة لإطلاق حملات تشجير عاجلة، أملاً في تعويض مستقبلي. تبدو الدعوات طموحة، لكن الحكم يبقى رهناً بتنفيذها، للحيلولة دون استنساخ المشهد المخزي المهيمن على أجزاء من ريف اللاذقية وجبال كسب، شبه العارية من جرّاء حرائق مفتعلة، وأعمال «تحطيب» استهدفتها في السنوات السابقة

من جهود إطفاء الحرائق في غابات اللاذقية (حازم سليمان ـ طبيعة بلا حدود)

حرائق تشرين: وادي النّضارة... المتفحّمة!

مودة بحاج

يمسك جورج غصن شجرة متفحّمة ذهبت ملامحها، ولم يبقَ فيها شيء يدل على ما كانت تحمله، أو أي خير كانت تعد به. يرمق ما تبقى من بستانه بعينيْن دامعتيْن، وهو يودع تعب سنوات، وموسماً كان من المفترض أن يحمل معه الخير، ويعينه على تأمين بعض مستلزمات حياته. بحسرة، يشرح لنا الرجل أن أرضه كانت من بين الأراضي التي تضررت بفعل الحرائق الأخيرة، التي اشتعلت في ريف حمص، وتحديداً في منطقة «وادي النضارة»، المعروفة شعبيّاً بـ«وادي النصارى»، وهي واحدة من أبرز مناطق الاصطياف في سوريا. لا يملك جورج أي مخططات جديدة في الوقت الحالي. الصدمة لا تزال طازجة، ولا يزال شكل الحرائق يرتسم في مخيلته طوال الوقت. لم ينس الرجل دموع أفراد أسرته، وهم يحاولون المساعدة في إطفاء الحرائق، من دون جدوى.

كانت الحرائق قد اندلعت يوم الإثنين، 14 تشرين الأول، في عدد من قرى الوادي، وانتشرت بسرعة بفعل الرياح، لتطاول الأراضي الزراعية والحرجية، في قرى الناصرة والمشتاية وعين الباردة وحب نمرة والزويتينة، وغيرها. لم تقتصر الحرائق على ريف حمص، إذ شهدت محافظة طرطوس 18 حريقاً حرجياً، و29 حريقاً زراعياً، أما محافظة اللاذقية، فشهدت 11 حريقاً حرجياً، و30 حريقاً زراعياً، وذلك بحسب تصريح صحافي لوزير الزراعة، أحمد القادري. يخبرنا نافع،

> **ساهم تعاون الأهالي في تخفيف الأضرار في المباني التي طاولتها الحرائق**

وهو من قرية عيون الوادي، بأن النيران اشتعلت بالقرب من قريته، في منطقتيْن حرجيتيْن، وأحاطت بمدجنة ومبقرة في المنطقة. تساعد سكان القرية لإنقاذ الدواجن والمواشي، ما حال دون وقوع أضرار كبيرة. يؤكد نافع أن «ذلك اليوم كان عصيباً للغاية». ويقول «استمرت النار ساعات طويلة. وبعدما تم إخمادها من قبل فرق الإطفاء، عادت في الليل لتشتعل من جديد». يقول لـ«الأخبار» إنه «من حسن الحظ أن النيران كانت بعيدة عن بيوت الناس وأرزاقهم، لكن الخسارة كانت كبيرة بشكل عام، إذ فقدت المنطقة الكثير من خضرتها، وتحولت إلى مساحة كبيرة من الأشجار المتفحمة».

النار «تحب اللقافة»!

تروي أوديت دبب، وهي «مديرة المركز الثقافي» في بلدة مرمريتا، بعض ما عاشته البلدة في ذلك اليوم الأسود. تقول «حين اندلعت النيران، خرج الجميع للمساعدة في تخفيف آثارها، وبدأوا برشّ المياه على البيوت الموجودة في الجبل، في محاولة لمنع النيران من الوصول إليها». توضح الديب، أنها حاولت الوصول إلى «المركز الثقافي» لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. لكن الوضع كان كارثياً، إذ كانت النار تحيط به من كل الاتجاهات، لذلك طلب منها رجال الإطفاء المغادرة وعدم الاقتراب، حفاظاً على سلامتها. بالنتيجة كانت الأضرار التي طاولت المبنى كبيرة، بفعل وجوده على جبل، بالقرب من غابات السنديان المعمرة. لا تنسى أوديت الرعب الذي عاشته المنطقة يومها، ولا ألسنة اللهب التي حوّلت بلدتها الخضراء إلى منطقة حمراء مشتعلة، لتمسي بعدها بلون الرماد. تقول إنهم اعتادوا وقوع مثل هذه الحرائق في الماضي، لكن الوضع هذه المرة كان مختلفاً فهو أشد حريق شهدوه، خاصة أن الرياح كانت تنقل النار من بقعة إلى أخرى بسرعة كبيرة.

مبادرات أهلية للتعويض

لم يمض وقت طويل على الفاجعة، حتى تنادت جهات أهليّة عدّة إلى إطلاق حملات إعادة تشجير. كان من أوائل المنادين، الشاب عبدو جرجس من قرية المزينة. كتب جرجس منشوراً على صفحته في موقع التواصل الاجتماعي «فايسبوك»، داعياً إلى إطلاق حملة تشجير، بحيث يحمل كل متطوع شتلة ويزرعها مكان شجرة محترقة. قدّر جرجس أن الوادي الذي يضم نحو مئة ألف نسمة، يمكنه الاستفادة من طاقة شبابه وهمتهم ، الذين قد يبلغ تعدادهم حوالى خمسين ألفاً. ما يعني، في حال مشاركة الجميع غرس 50 ألف شتلة جديدة، تسهم في تعويض الخسارة. لاقت دعوة جرجس رواجاً كبيراً، وقوبلت دعوته بتفاعل من جهات عدّة أبدت استعدادها لدعم الحملة. يوضح عبدو لـ«الأخبار» أنه لاحظ أنّ حملات عدة قد أُطلقت لتحقيق الغاية نفسها، فبدأ بالتواصل معهم لتوحيد الجهود. من بين تلك الحملات مبادرة أطلقها رامي سمعان، من بلدة المشتاية، وهو طالب هندسة زراعية في جامعة حلب. وأخرى دعت لها حلاّ أحوش، وهي «رئيسة مكتب مؤسسة الشهيد ـ فرع الوادي». كان من نتائج التواصل بين المبادرين، عقد اجتماع في «فندق الوادي». حضرت الاجتماع جهات تطوعية عدة، بالإضافة إلى الفرق الكشفية في المنطقة، وشخصيات دينية. ووفقاً لجرجس، فقد تداول المجتمعون في طرق تخطيط الحملة، لا سيّما أن البدء بالتشجير يستوجب استيفاءه بخطوات تمهيديّة. «لا بدّ من إزالة الأشجار المحروقة، وتنظيف التربة من الرماد. كما لا بدّ من هطول الأمطار، كي تترطب التربة وتصبح مهيّأة للزراعة»، يقول.

لم تقتصر الجهود الأهلية على أبناء المنطقة المنكوبة. راجت في دمشق والسويداء، دعوات لإطلاق حملة مشابهة، وضعت شعاراً لها «إرجاع النضارة». وحتى الآن، لاقت الدعوة صدىً واسعاً، وساهمت بعض الوجوه الفنية والإعلامية في الترويج لها. يقول مؤسس الحملة، جورج نوفل، لـ«الأخبار» إن «الحملة شبابية، ولا تتبع جهة حكومية معينة. لكنها تسعى للحصول على ترخيص من الجهات المعنية، وتهتم بالتعاون مع أي مبادرة مشابهة». ويضيف «لهذا أقمنا شراكة مع مؤسسة التطوير البيئية، ومع حملات أخرى». يوضح نوفل أنه «من المقرر تنفيذ الحملة مطلع الشهر القادم». ويقول «هذا موعد أوّلي، والالتزام به مرتبط بتوافر التبرعات الكافية، لتغطية ثمن الشتلات، ونقل المتطوعين بالباصات وتأمين أماكن إقامة لهم. كما أنه مرتبط بعوامل الطقس، وتوافر الظروف الملائمة للسفر». يشير الشاب إلى محدودية التبرعات التي وصلتهم حتى الآن، رغم الدعم المعنوي الكبير الذي تلقوه من الجميع. ويؤكد أن الحملة ستستمر، حتى ولو لم تتلقَّ كل الدعم المتوقّع. كذلك، يؤكد أنّ التشجير «سيكون تحت إشراف مهندسين زراعيين، وسيكون نطاقها أوسع من وادي النضارة فقط. ستمتد لتشمل اللاذقية وطرطوس مستقبلاً».

وجوه

عيسى سلامة: نحّات الصخور «المخلصة»

يحمل الخمسيني عيسى سلامة مطرقة وإزميلاً، وينهمك جاهداً بكل قواه في النحت. تغطي وجهه لحية بيضاء، أخذت لونها من غبار أحجار منحوتاته، فيما يصنع جمالاً من صلابة الأحجار. يفضل سلامة الحجر على بقية الخامات للنحت، ويرجع ذلك إلى انتمائه لبيئة جبلية تتميز بصخورها الضخمة والقاسية.

يسند الرجل جسده على صخرة، ويبدأ حديثه مع «الأخبار» بالقول: «النحت على الحجر هو خروج عما هو مألوف». يعدّ النحت «ولادة جديدة لتلك الصخور»، ويعتقد أن نحته يهب الحياة للحجارة والأخشاب التي تجسد أنواعاً مختلفة من الأشكال المعبرة. تتخذ المجسمات والتماثيل التي صنعها ابن قرية الدريكية (تتبع مدينة بانياس)، أوصافاً متعددة «كالأحياء، تماماً»، بحسب وصف صانعها. «لكن الأحجار مخلصة، ولا تعرف خيانة البشر»، يقول متحدثاً عن أسباب حبّه لتلك الأحجار، وتمضية جلّ وقته بالعمل فيها.

بدأ سلامة النّحت منذ طفولته، بـ«فطرة ربانية» ومن دون معلم ينهل منه قواعد للنحت وأساليبه. وتجسد منحوتاته الواقع البشري، إذ لا حاجة إلى الإمعان في التفكير فيها. يسعى سلامة، بحسب قوله، إلى أن «يرى السوريون شكلاً آخر للأحجار، بعيداً عن صلابتها»، وأن يستطيعوا التعرّف على أنواعها، من خلال منحوتاته التي يحرص على إطلاق الأسماء عليها. يقول «الأحجار متنوعة في بلادنا، كتنوع أطياف العباد فيها»، يُعبّر سلامة من خلال أحجاره عما يعتريه من مشاعر وانفعالات. ينسى نفسه وتفاصيل يومه، إلى أن ينهي عمله مع الصخور، على أتمّ وجه، وعلى نحو يرضيه. يستطيع الخمسيني صنع أيّ منحوتة حجرية خلال أسبوع في الحد الأقصى، ويعلق على ذلك بقوله «هذه الصخور السورية ليست كباقي الصخور في العالم، شهدت معنا وعلينا، وصارت بيننا علاقة صداقة حميمة». يقول مختتماً حديثه «خلف قسوة البازلت التي تخدع العيون والأكف، هناك قلب عامر بالدفء والحب والجمال، ليس يراه غير نحات علِمه البحر أن اللآلئ تختبئ تحت الأمواج الهادرة».

عبد الله قاضي يتأقلم مع «تناقضات» الهند

على رغم اختلاف الثقافة والحياة في الهند عما في سوريا، لم يلاقِ عبد الله قاضي (27 عاماً)، ابن محافظة إدلب، صعوبة كبيرة في التأقلم مع الحياة في الهند، وخاصة أنها «بلد التناقضات» كما يصفها كل زائر لها.

قصد الطالب السوري شبه القارة الهندية بعد قبوله في منحة تبادل ثقافي بهدف إكمال الدراسات العليا في الصيدلة، عبوراً بأربعة مطارات من بيروت إلى الشارقة، ثم دلهي وصولاً إلى بوبانسوار في ولاية أوديشا، تاركاً وراءه تسع سنوات من التشتت! انتقل عبد الله خلالها من قريته معرتمصرين في ريف إدلب مع بدء الأزمة فيها قاصداً مدينة حلب لاستقرار الوضع فيها، وأيضاً لدراسة الصيدلة في جامعتها.

اعتاد عبد الله خلال سنوات استقراره في حلب المأكولات الغنية بالبهارات التي يشتهر فيها المطبخ الحلبي، ما سهّل عليه تقبّل كثرة التوابل الهندية في الطعام، على الرغم من وجود بعض الاختلافات في المذاق. لكنه لا يزال يلاقي صعوبة في مواجهة ارتفاع أسعار زيت الزيتون مقارنة مع بقية السلع، بعد أن اعتاد «البذخ» في استهلاك الزيت الممتاز عندما كان في إدلب، حيث كان يملك والده أرضاً مزروعة بالزيتون تدرّ عليهم فائضاً عن حاجتهم سنوياً، كان ذلك قبل أن تسيطر «جبهة النصرة» على المنطقة.

وبعد تخرّجه في كلية الصيدلة، ومع سوء الأوضاع الأمنية في حلب، اضطر عبد الله إلى الانتقال إلى اللاذقية مع عائلته، حيث استقر فيها لمدة أربع سنوات عانى خلالها من اختلاف الطقس، وخاصة ارتفاع معدل رطوبة الجو في المدينة الساحلية، إلا أن الأمر ذاته سهّل عليه التأقلم مع طقس المدينة الهندية ذات الرطوبة العالية، إذ لا ينخفض معدلها عن 90% طوال العام. يمشي عبد الله في شوارع المدينة الهندية بعد أن تعرّف على عدة طرق ومناطق سياحية فيها، قائلاً «من يعش في سوريا في ظل تلك الظروف يستطع التأقلم مع أيّ وضع جديد»، ويردف ضاحكاً «حتى الأزمة في البلد كان لها فضل علينا».

بريد المهجر

نحو مدينة «معاصرة»

تمام محسن *

زرت دمشق للمرة الأولى عام 1983. كنت طفلاً لا يتجاوز الخامسة من عمره، فلم يعلق من صور المدينة في ذاكرتي الطفولية سوى اثنتين: الأراجيح والعاب الأطفال في حديقة ألعاب الأطفال المطلّة على «نهر عيشة»، وقصص الأطفال الملوّنة المصفوفة بعناية على رفوف «مكتبة ميسلون» التي حرص والدي على اصطحابي إليها في كل زيارة للعاصمة.

جاءت زيارتي «الواعية» الأولى بعد ذلك التاريخ بثلاثة عشر عاماً. وللأسف، لم يكن الانطباع العام لتلك الزيارة جيداً. لا أزال أتذكر كيف تغيرت رائحة الهواء ولونه حالما بدأت الحافلة تنحدر مجتازة منطقة «التنايا»، قبل وصولها إلى المدخل الشمالي للمدينة. بدا واضحاً مدى تلوّث الهواء بهباب الفحم والغازات السامّة المنبعثة من مصادر مختلفة. لاحقاً، عندما بدأت التنقّل داخل دمشق، لفت نظري أنه في مقابل الحيوية والحركة المفعمة بالحياة للمدينة التي لا تنام، يلمس المرء بوضوح الفوضى اللافتة التي تسود الشوارع والأحياء. فوضى مرورية سببها ضيق الشوارع وسوء التنظيم، وأخرى عمرانية ذات أسباب متنوّعة. تلك الفوضى لا تحتاج إلى عين متخصّصة لاكتشافها، فهي واضحة لمن يزور أحياء «ركن الدين، القدم، الدحاديل، مزة 86، التضامن» وغيرها. في المجمل خرجت بانطباع مفاده أن «مدينة الياسمين» لم تواكب التطور العمراني لقريناتها، ولم تلبس ثياباً عصرية تليق بمكانتها. مرّت الأيام، وشاءت الظروف أن أتابع دراستي الجامعية في كلية الهندسة المعمارية بجامعة حلب. لاحظت أثناء سكني في حلب، أنها في العموم أكثر تنظيماً من دمشق، لكن أحياءها الشعبية كـ(الميدان والصاخور والنيال وميسلون) ليست أفضل حالاً من ناحية التنظيم والبنى التحتية من مثيلاتها في دمشق (مع التنويه بشبكة الطرق والجسور التي كانت الدولة تُبدي اهتماماً واضحاً بتطويرها في تلك الفترة). مع الزيارات المتفرقة لمدن سورية أخرى، (طرطوس، اللاذقية، درعا، دير الزور، حمص وحماة)، بدأ يلحّ عليّ . بحكم اختصاصي الجامعي . تساؤل منطقي: «متى سيبني السوريون مدينتهم المعاصرة التي يستطيعون أن يفاخروا بتنظيمها وحداثتها وبنيتها التحتية وحداثتها ومرافقها العامة المتكاملة وشوارعها الفسيحة...؟!

كان السؤال الحالم يكبر في ذهني مع كل خطوة خلال دراستي الجامعية، ويمتزج بما كنت أتعلّمه في مقرري «نظريات تخطيط المدن» و«التصميم المعماري»، وبسير معماريين كبار وراد من أمثال حسن فتحي ولوكور بوزييه ولويس كان وفرانك لويد رايت، الذين كانت لكل منهم مدرسته الخاصة في التصميم المعماري أو تخطيط المدن.

في السنة الرابعة من دراستي الجامعية، عرضت على زميل أن نتقدم بمشروع تخرّج مشترك، فكرته الرئيسة تنظيم مدينة جديدة على أطراف البادية السورية، تكون بمثابة «المدينة النموذجية» القابلة للتكرار حتى على صعيد المدن السورية القائمة والمأهولة، وإن لم يكن المشروع مثالياً، نكون على الأقل قد خطونا خطوة في هذا المسار، وفتحنا باباً لغيرنا. للأسف، اصطدم مشروعنا بعوائق عدة لدى بلوغنا مرحلة التخرّج، جلّها باختصار عوائق إدارية، إذ لم تُجز إدارة الكلية مشاريع التخرّج المشتركة في ذلك الفصل الدراسي. وتحت الشعار البرّاق «ربط الجامعة بالمجتمع» الزمتنا الإدارة باختيار مشاريع تخرّج مطروحة من إحدى الجهات العامة (طبعاً لم يكن أحد يفكر بالطرح الذي كنا نفكر فيه وقتها). حاولت تبني مشروع مطروح من القطاع العام، وأقرب إلى ما كنا نفكر فيه «مساكن نموذجية لعمال الفوسفات في ريف حمص»، لكنني اصطدمت بوجهة نظر أحد الأساتذة المشرفين: «ما لك وللمشاريع السكنية. لن تتمكن من دراسة مشروع كهذا بشكل جيد خلال ثلاثة أشهر. الأفضل أن تتبنى مشروعاً أسهل كالمركز التجاري المطروح على أرض بجوار الجامعة». خاب أملنا، وتخرجنا بمشروعين بعيدين كل البعد عما كنا نفكر فيه.

انتقلت بعد تخرّجي بفترة قصيرة للعمل في دولة الإمارات العربية المتحدة. وكأي مغترب كنت أعقد مقارنات دائمة، بين واقع المدن السورية وواقع المدن في دولة الاغتراب (للأسف كانت الكفة دائماً تميل لصالح المدن الإماراتية). إن تجربة عملي في الإمارات، عزّزت قناعاتي السابقة بضرورة العمل على تحديث الاتجاه العمراني في سوريا. وأظن أن الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، هي البدء، بدراسة وتنفيذ مدينة سورية نموذجية جديدة، تكون مثالاً يُحتذى للانطلاق نحو إعادة تنظيم وتحديث بنية المدن السورية القائمة. وفي الوقت ذاته، تؤمن هذه المدينة السكن والخدمات المطلوبة لبعض من دُمرت مساكنهم خلال الحرب، وبما يعطي مجالاً زمنياً للدولة السورية لإعادة تنظيم وإعمار الأحياء المدمّرة في المدن والأرياف السورية المختلفة.

*مهندس معمار مغترب